آيات الإشراق في القرآن الكريم
دراسة تحليلية

د. حميد شاهر فرحان

جامعة الأنبار- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم علوم القرآن

The explanation of Al-Darder on the clarification of Al-Baythawe answers for Albdullah Bn Ottoman

Dr. Hameed Shaher Farhan

ملخص

بسم الله، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله – محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: إن علم التفسير أهمية كبيرة من العلوم الشرعية؛ لأنه يتعلق بالقرآن الكريم، لذا قد ارتأيت في هذا البحث أن يكون خاص بالدراسة التحليلية، فقد اخترت لفظ (الإشراق) التي وردت في مواضع عدة من القرآن الكريم، وأردت من لفظة الإشراق شروق الضوء، وليس الجهة، وأن أدرس أهم الجوانب التي جاءت فيها لفظة الإشراق، والألفاظ المرادفة لهذه اللفظة، ثم بينت فيه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي هذا.

Abstract

ln the name of Allah, peace and blessing be upon creation of Allah- Muhammad peace be upon him, and who followed him with charity to the day of judgment, and after the science interpretation is of great importance in the forensic science; because it is related to Holly Quran.

Therefore , l have chosen the word (illumination) , which appeared in several places in Holly Quran , l wanted the word (sunshine) , not the side , and to study the most important aspects in synonyms of this word.

Than l showed my most important findings through my research.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين وبعد:فإن لمفردات القرآن الكريم أسراراً لا تنتهي، وعجائب لا تنقضي؛ وذلك لكونه تنزيل الحكيم العليم، فإشراقاته مشعة في كل كلمة من كلماته، تجذب قارئها وتُميله إليها ليخرج منها بجواهر ثمينة، ومعانٍ كبيرة، تدهش العقول، وتنير الضمائر، فتصل بالإنسان إلى مبلغ عظيم، وترتقي به إلى أعلى المراتب، كيف لا وهو كلام الخالق العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، كل هذا مدعاة للبحث عن درر وأسرار هذه الكلمات، وشعت منها الأنوار القدسية إلى أي مدى يكون شعاها، وإلى أي قعر يكون امتدادها، وبينما أنا أقرأ القرآن الكريم، استوقفتني آية قد تكررت ووردت بسور مختلفة، ألا وهي كلمة (الإشراق)، التي تحمل في طياتها معاني لا بد من البحث عنها، واستقصاءها بمبلغ بشري، وعقل لا يبلغ الكمال، ولمَّا كان القرآن الكريم دستور هذه الأمة، وطريق هدايتها، ومجدها، وعزها، ارتأيت أن يكون بحثي هذا (الإشراق في القرآن الكريم _ دراسة تحليلية)، وكان البحث مكوناً من مقدمة، ومقسَّماً على مبحثين:المبحث الأول: محددات مفهوم الإشراق في اللغة والاصطلاح، والألفاظ ذوات الصلة.المطلب الأول: محدداته في اللغة.المطلب الثاني: محدداته في الاصطلاح.المطلب الثالث: الألفاظ ذوات الصلة بمفهوم الإشراق.المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة فيها لفظة الإشراق.المطلب الأول: صيحة العذاب لقوم لوط وقت الإشراق.المطلب الثاني: إشراق الأرض بنور الباري يوم القيامة.المطلب الثالث: بوادر هلاك فرعون وقومه لموسى– عليه السلام– وقت الإشراق.المطلب الرابع: تسبيح الجماد للباري – عز وجل – وقت الإشراق.ثم جاءت الخاتمة، وقد بينت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها.اعتمدت في كتابة هذا البحث على (القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الصحيحة)، واستعمال المصادر والمراجع التفسيرية، واللغوية المعتمدة.وفي الختام أسأل الله _ عز وجل _ أن يوفق الجميع لخدمة كتابه العظيم، وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة محمد_ عليه الصلاة والسلام_ وعلى أله وصحبه وسلم أجمعين.

المبحث الأول

محددات مفهوم الإشراق في اللغة والاصطلاح، والألفاظ ذوات الصلة:

المطلب الأول: محدداته في اللغة:

(شرق) الشين والراء والقاف أصلٌ واحد يدل على إضاءة وفتح، يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت الشمس إشراقا، إذا أضاءت[1]والشّرقة: موقع الشمس في الشتاء على الأرض بعد طلوعها، أما في الصيف فلا شرقة لها[2]، يقال: أشرق وجه الرجل، أي: أضاء وتلألأ حُسناً، والتشريق: الغلام الحسن الوجه[3].وتشريق اللحم: تقديده، ومنه سُميت أيام التشريق؛ لأن لحوم الأضاحي تُشرق فيه، أي: تُشرَّر في الشمس، وقيل: سُميت بذلك؛ لأن الهدي لا ينْحر حتى تشرق الشمس، والتشريق: هو صلاة العيد، وإنما أخذ من الشروق؛ لأن ذلك وقتها[4].وقد كانت العرب تقول: أشْرِق ثبير كيما نغير، يريد ادخل أيها الجبل في الشرق، وهو ضوء الشمس، كما تقول أجنب إذا دخل في الجنوب، وأشمل إذا دخل في الشمال[5].

المطلب الثاني: محددات الإشراق في الاصطلاح:

الإشراق: هو لحظة بداية ظهور الجرم السماوي على الأفق نتيجة الحركة اليومية الظاهرية في السماء[6].وقيل: هو انبعاث نور من العالم غير المحسوس إلى الذهن تتم به المعرفة[7].

المطلب الثالث: لألفاظ ذوات الصلة بمفهوم الإشراق:

ذكر العلماء أن هناك ألفاظاً ذات صلة بالإشراق وهي كما يأتيأولاً: سفر، كما في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [8] ، قال الفراء: أي مشرِقة مضيئة، قيل: سفر الصبح يسفر سفراً، أي: أضاء وأشرق[9].ثانياً: بزغ، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [10]، يقال: بزغت الشمس بزوغاً، أي: بدا طلوعها، ونجوم بوازغ: طوالع[11].ثالثاً: صبَح: الصاد والباء والحاء أصلٌ واحد مُطَّرِدٌ، وقد سُميَ الصباح صُبحاً لحمرته، والجمع أصباح، والصباح: أول النهار[12]، قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [13]. رابعاً: بلج: هو الإشراق، تقول: بلج الصبح يبلج بلوجاً، أي: أضاء، وصُبحٌ أبلج بيّن البلج، أي: مُشرِق مضيء[14].خامساً: سطع، يقال: سطع النور يسطع سطوعاً، إذا انتشر، وقيل: سطع الصبح يسطع فهو ساطع[15].سادساً: شوذ، يقال: تشوذت الشمس إذا ارتفعت، والتشويذ: طلوع الشمس وارتفاعها[16].

المبحث الثاني
الآيات القرآنية الواردة فيها لفظة الإشراق

المطلب الأول: صيحة العذاب لقوم لوط وقت الإشراق

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ [17]

أولاً: تحليل الكلمات:

قوله تعالى: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يقال: بشرت الرجل أبْشِرُهُ بَشْراً، إذا أفرحته وأسررته، وتباشر القوم، أي يبشر بعضهم بعضاً، والبشارة: أول خبر يرد على الإنسان بما يسره، والبشارة المطلقة لا تكون إلا في الخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة به كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [18]، قيل: إن البشارة مأخوذة من بشرت الإنسان حيث تنبسط عند السرور، ومن هذ قولهم: فلان يلقاني ببِشر، أي: بوجه منبسط عند السرور[19].قوله تعالى: ﴿ تَفْضَحُونِ ﴾ (فَضَحَ) أصلٌ يدل على انكشاف الشيء، ولا يقال ذلك إلا في القبيح، وقد ذكر بعض العلماء: أن الفضح فعل مجاوز من الفاضح إلى المفضوح، والاسم الفضيحة، يقال: افتضح الرجل، إذا انكشف مساويه، ورجلٌ فضوح، أي: يفضح الناس[20].قوله تعالى: ﴿ تُخْزُونِ ﴾ الخزي: الفضيحة: وأصل الخزي: ذلٌ يستحي منه، يقال: أخزيته، أي فضحته، وقد خزِي يَخْزى خِزْياً، إذا افتضح وتحيّر فضيحة،

وأخزاه، أي: أهانه، وفضحه، وأخجله[٢١].قوله تعالى: ﴿نَنْهَكَ﴾ النهي: خلاف الأمر، تقول: نهاه ينهاه نهياً، فانتهى وتناهى، أي : كفَّ، قيل: تناهى القوم عن الشيء، إذا نهى بعضهم بعضاً، وقيل: نفسٌ نهاةٌ، أي: منهية عن الشيء[٢٢].

قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ (عمه) أصلٌ يدل على حيرة وقلة اهتداء، عَمِه يعمه عمهاً فهو عمه وعامه، إذا ضلّ، قيل: فلان في عمه من أمره، وهو التردد والتحير[٢٣]، وقيل: أرض عَمْهاء، إذا لم يكن فيها أمارات تدل على النجاة، تقول: ذهبت إبله العمَّهى، إذا لم يدر أين ذهبت[٢٤].

ثانياً: المناسبة:

لما تمَّ ما دار بين الله – عز وجل – والرسل مقدّماً لما بيّن، أتبعه البيان عن حال قومه؛ إشارة إلى أن الملائكة إن كانوا بصفات البشر لم يعرفهم الكفرة، وإن كانوا بصفاتهم، أو إظهار شيء من خوارقهم، لم تحتمله قواهم، فلا نفع لهم في مكاشفتهم في حالة من الحالات، ولما كان إكرام الضيف إكراماً لمن هو عنده، وإهانته إهانته، سبب عن ذلك ما أشار إليه الكلام (فلا تفضحون) ومن إصابتهم بفاحشة (ولا تخزون) أي: بإهانة ضيفي، فلما وصلوا إلى هذا الحد من الوقاحة في أمورهم، وعظيم فجورهم، وقد فَرِغَ من أمرهم وقضي، أهلكهم الله إهلاكاً عظيماً، فجعلهم الله عبرة للمتوسمين، للدلالة حقيقة ما أصابهم ، ومن رأى الوسم استدل على المعصية به، واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي، لئلا ينزل به ما نزل بهم[٢٥].

ثالثاً: الأوجه البلاغية:

١- الاستفهام[٢٦]: في قوله تعالى: (أو لم ننهك) وهذا استفهام إنكاري[٢٧]، والمعطوف هو الإنكار[٢٨].

٢- الاعتراض[٢٩]: في قوله تعالى: (لعمرك إنهم في سكرتهم) فقد جاءت معترضة بين القصة للعبرة في عدم جدوى الموعظة، فيمن يكون في سكره وهواه[٣٠].

٣- الكناية[٣١]: في قوله تعالى: (لعمرك) استعمال لفظ القسم كناية عن التعظيم[٣٢].

٤- الإشارة[٣٣]: في قوله تعالى: (هؤلاء بناتي) إشارة إلى النساء، لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته[٣٤].

رابعاً: القراءات القرآنية:

(١) قوله تعالى: (وجاء أهل) إذا وقف حمزة وهشام على (جاء) أبدلا الهمزة ألفاً مع المد والتوسط، أما في الوصل فقد قرأ أبو عمرو، والبزي، وقالون، ورويس من طريق أبي الطيب، وقنبل من طريق ابن شنبوذ، بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر في الألف قبلها، وقرأ ورش وأبو جعفر، ورويس وقنبل من غير طريقهما في القراءة السابقة بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ[٣٥].

(٢) قوله تعالى: (فلا تفضحون) قرأ الجمهور بنون مكسورة على حذف ياء النفس، والنون المثبتة هي نون الوقاية، وحذف الياء عندهم في الوقف والوصل، وأثبتهما الحضرمي وحده في الوقف والوصل[٣٦].

(٣) قوله تعالى: (فلا تخزون) قراءة الجمهور بحذف ياء في الوقف والوصل، وهو الموافق للرسم القرآني، وقرأ يعقوب (ولا تخزوني) بإثبات الياء في الوصل والوقف[٣٧].

(٣) قوله تعالى:(بناتي إن) قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، بسكون الياء في الوقف والوصل، وقرأ نافع، وأبو جعفر، بفتح الياء في الوصل، وأما في الوقف فالجميع على السكون[٣٨].

(٤) قرأ الجمهور (لعمرك)، و(وإنهم لفي سكرتهم) وهي قراءة عشرية متواترة، في حين قرأ ابن عباس: (وعمرك) بحذف اللام، وقرأ الأعمش: (لفي سكرهم) بغير تاء، وقرأ أبو عمر في رواية الجهضمي: (أنهم في سكرتهم) بفتح الألف[٣٩].

خامساً: الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في موضع نصب على الحال[٤٠].

قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ (ضيفي) خبر إن مرفوع، وحَّد؛ لأنه مصدر في الأصل ضفته ضيفاً، أي نزلت به، والتقدير: ذوو ضيفي[41].قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ في إعراب (هؤلاء بناتي) ثلاثة أوجه: أولها: يجوز أن يكون مبتدأ، وبناتي خبره، وفي الكلام حذف، أي: فتزوجوهن، ثانيها: يجوز أن يكون بناتي بدلاً، أو بياناً، والخبر محذوف، أي: أطهر لكم، ثالثها: يجوز أن يكون هؤلاء في موضع نصب بفعل محذوف، أي: قل تزوجوا هؤلاء[42].قوله تعالى: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ قال النحويون: ارتفع (لعمرك) بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى، لعمرك قسمي، وحذف الخبر؛ لأن في الكلام دليلاً عليه[43].قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾ نصب على الحال[44].

سادسا: المعنى العام:

إن التعبير الذي صورته الآيات الكريمة، يدل دلالة واضحة على أن القوم وهم سدوم، قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من النار، من الانتكاس، والشذوذ، وانعدام الحياء، إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فرداً، وأفراداً، وإنما يأتون جميعاً – أهل المدينة – وفي فرح، وسرور، وفي الجهر والعلانية، لا في السر والخفاء، ولأي غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ، وقوم لوط – عليه السلام– ليس لهم اسم يعرفون به، فهم أدنى من أن يسموا باسم يميزهم على غيرهم، فليس لهم آباء كرام ينتسبون إليهم، وليس لهم مفاخر من الأعمال التي يتميزون بها، لذلك لم يرسل لهم نبي من أنفسهم، لأن النبي يرسل من يرأس قومه وأفضلهم، وقد كان هؤلاء في الرذيلة سواء، وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس تصل في مجاهرتها بإتيان الفواحش إلى ما تصل بها الحيوانات، لقد اختلت المقاييس عندهم، فصار الرجال أهدافاً مرغوبة، بدلاً من النساء، ولقد كانت تصرفاتهم تحزن قلب لوط، ويقف لوط – عليه السلام – أمام شذوذ قومه، مكروباً، محبطاً يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم، الذين أتوا مسرعين يستبشرون بأضيافه؛ طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم، والتقاليد تقتضي أن يأخذ الضيف كرامة المُضيف، وأي إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف[45]، لذا قال لهم لوط– عليه السلام –: فلا تفضحونِ بفضيحة ضيفي، ولا تذلّونِ بإذلال ضيفي من الخزي والهوان، وكان – عليه السلام – يقوم بالنهي عن المنكر، والحِجر بينهم وبين المتعرّض له، وقالوا له بعد أحال بين قومه وبين ضيفه: ألم ننهك عن أن تدخل أحد من الغرباء إلى بيتك؛ لأننا نريد منه الفاحشة[46]، ولكن لوطاً – عليه السلام– مع شناعة قولهم هذا، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه، فأخذهم إلى ما تدعوه الفطرة السليمة فقال: (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) قيل: المراد ببناته، زوجاتهم ونساؤهم اللائي يصلحن للزواج، وأضافهن إلى نفسه؛ لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه، ونساؤهم بناته[47]، قال أبو حيان: الظاهر أن هذا المجيء، ومحاورته مع قومه في حق أضيافه، وعرْضِهِ بناته عليهم، كان ذلك قبل إعلامه بهلاك قومه، وعلمهم بأنهم رسل الله[48]، وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون بعد علمهم بهلاكهم، وكان قوله ما يأتي من المحاورة على جهة التهكم عنهم، والإملاء لهم، والتربص بهم[49]، وهنا يقسم رب العزة بحياة محمد – صلى الله عليه وسلم – في قوله: (لعمرك) قال ابن العربي: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد – عليه السلام– تشريفاً له[50]، قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسمٌ من الله – عز وجل – بمدة حياة محمد – عليه الصلاة والسلام –، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه بمحمد – صلى الله عليه وسلم– وما أقسم بحياة أحد إلا حياته[51]، والمعنى: بحياتك يا محمد أنهم في سكرتهم يترددون فلا يفهم ما يقال لهم، فتأخذهم صيحة العذاب مشرقين، قيل: كان العذاب عند الصبح، وامتد إلى شروق الشمس، فكان تمام العذاب عند ذلك[52].**وأما اختيار الهلاك في الصباح مع الشروق ففيه حكمة عظيمة من الله:**

فأولاً: من كان نزل القرية أو أطرافها فيكون قد خرج منها، وابتعد عنها؛ لأن من عادة السفر في المناطق الحارة التحرك آخر الليل مبكراً مع الفجر وقبل الشروق، ليقطع مسافة أطول قبل اشتداد الحر، وقبل أن يُصيبه الإرهاق والدواب التي معه. ثانياً:

من أراد دخول القرية لا يكون قد وصل إليها في هذا الوقت في الغالب، وكان تحديد الهلاك لأهل القرية فقط دون من يأتيها.

ثالثاً: وكانت الحكمة في سبب إهلاكهم وقت الشروق؛ لأنهم يكونون مجتمعين في مساكنهم فلا يفلت منهم أحدٌ[٥٣]، وجعل الله من تلك الصيحة المحركة للأرض عاليها سافلها، وهي عبرة للمتوسمين، كأن معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وسماً، يستدل به على المعصية، واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي، لئلا ينزل به ما نزل بهم[٥٤]

سابعاً: الفوائد المستنبطة:

(١) اشتهار قوم سدوم بفاحشة إتيان الرجال دون النساء[٥٥].

(٢) إكرام الضيف إكراماً لمن عنده، وإهانته إهانته[٥٦].

(٣) ما بعث الله داعياً يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه بعد الإيمان، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية.

(٤) مجيء الملائكة ومحاورة لوط لقومه، وعرض بناته للتزويج، كان كل ذلك قبل إعلامه بهلاك قومه، وعِلمه بأنهم رسل الله[٥٧].

(٥) يجوز في سنتهم تزويج المؤمنة بالكافر[٥٨].

(٦) في هذه الآية دلالة واضحة على شرف سيدنا محمد – عليه السلام– وعلو منزلته[٥٩].

(٧) في الآية دلالة على أن القوم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة، عند الصبح لكي لا يبقى منهم أحد[٦٠].

(٨) جعل الله هلاك القوم عبرة لمن يمر بهم؛ لكي يعرف حقيقة أمرهم، وسوء أعمالهم[٦١].

المطلب الثاني إشراق الأرض بنور الباري يوم القيامة:

﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [٦٢]

أولاً: تحليل الكلمات:

قوله تعالى: ﴿ بِنُورِ ﴾ (النور) هنا من الضياء، أي أضاء بنور يسطح فيها، وهو النور الأخروي[٦٣].

قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ﴾ (وضع) أصلٌ يدل على الخفض للشيء وحطه، والموضع مصدر قولك: وضعت الشيء أضعه وضعاً، وهو ضد الرفع، تقول: امرأة واضع، إذا ألقت قناعها، وشاةٌ واضع إذا ولدت، ومنه: الخياط يوضع القطن على الثوب توضيعاً، والموضع: هو المكان[٦٤].قوله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ ﴾ (قُضِي) أصلٌ يدل على إحكام أمر وإتقانه، وإنفاذ جهته، تقول: قضى يقضي، قضاءً وقضية، أي: حكم[٦٥]، وقضى في اللغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى: انقطاع الشيء وتمامه، والقضاء: الحكم، والقاضي في لغة أهل الحجاز معناه: القاطع للأمور المُحكم لها[٦٦]، وسميت المَشيئة قضاءً؛ لأنه أمر ينفذ في ابن آدم وغيره من الخلق، والانقضاء: ذهاب الشيء وفناؤه[٦٧].قوله تعالى: ﴿ يُظۡلَمُونَ ﴾ ، (ظلم) :هو مصدر من ظلمته أظلمه ظلماً، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، ثم كثُر حتى سُمي كل عسف ظلماً[٦٨]، ويقال: من أشبه أباه فما ظَلَم، والعرب تقول: ظلم فلان سقاه، إذا سقاه قبل أن يُخرج زبده، تقول: تظلمني فلان، أي: ظلمني مالي، وظلمت فلان تظليماً، إذا نسبته إلى الظلم[٦٩].

ثانياً: المناسبة:

صور لنا القرآن في الآيات السابقة مشهد من مشاهد الآخرة ، إذ تهدأ كل حركة، ويخيم عليها الصمت، ورهبة الخشوع، حيث يبعث بالصعقة الأولى، فيصعق من كان باقياً على وجه الأرض، والنفخ في الصور من قبل الله سبحانه وتعالى، هو الأمر الذي يصدر منه سبحانه، إلى ما يشاء من عالم الخلق، فيستجيب له من وقع عليه الأمر، بلا تردد أو مهل، ولهذا شبه الأمر بالنفخ في الصور، حيث يفزع كل من سمع النفخة، فيخفّ مسرعاً، متخلياً عن كل شيء، ليتوقى هذا الخطر الداهم، ثم يبعث بالصعقة الثانية، حيث إن البعث يقع للناس جميعاً في لحظة واحدة، حيث يولدون جميعاً ميلاداً كاملاً، على صورة

كاملة[٧٠].ولما ذكر إقامتهم بالحياة التي هي نور البدن ، أتبعه إقامتهم بنور جميع الكون ظاهراً بالضياء الحسي، وباطناً بالحكم على طريق العدل الذي هو نور الوجود الظاهري والباطني على الحقيقة[٧١]، فإذا قضى الله بين الناس بالحق، وعرف كل إنسان ما قضى الله به عليهم، وامتاز أصحاب النار من أصحاب الجنة، عندئذ يساق الكافرون إلى جهنم زمراً[٧٢].

ثالثاً: الأوجه البلاغية:

(١) الاستعارة: في قوله تعالى: ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ، استعير له النور؛ لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق، كما أنه أضاف (ربّ) إلى ضمير الأرض؛ وذلك لتشريف المضاف إليه[٧٣].

(٢) الجزل من الألفاظ[٧٤].

(٣) وضع الماضي موضع المستقبل تنزيلاً للمتوقع منزلة الواقع[٧٥].

رابعاً: <u>القراءات القرآنية:</u>

(١) قرأ الجمهور(وأشرقت) مبنياً للفاعل، أي أضاءت، وهي قراءة متواترة، وقرأ ابن عباس، وعبيد بن عمرو، وأبو الجوزاء: مبنياً للمجهول، من شرقت الضوء تشرق، وهو منقول بالهمزة من شرقت إذا طلعت، وليس من أشرقت بمعنى: أضاءت؛ لأن ذلك لازم، وجعله ابن عطية مثل رجع ورجعته، ووقف وقفته، فيكون أَشْرَق لازماً ومتعدياً[٧٦].

(٢) قوله تعالى: (وجيء) قرأه بإشمام الجيم الضم كلٌّ من هشام، والكسائي، ورويس، والحسن، والشنبوذي، وقرأ حمزة، وهشام في الوقف بإبدال الهمزة ياء، ثم ادغام الياء التي قبلها فيها (وجيَّ)[٧٧].

خامساً: المعنى العام:

حين يتجلى الرب – تبارك وتعالى – لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد قيامهم من قبورهم، وتشرق الأرض بنوره، وليس إشراقها من شمس ولا قمر، قال الحسن والسدي: بنور ربها، أي بعدل ربها، ولمّا كان الله – عز وجل – أقام فيها من العدل استعير له النور؛ لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق[٧٨]، والمراد بالكتاب : وهو صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس؛ لأن كل أحد له كتاب على حده، وقيل: إنه اللوح المحفوظ الذي يشرح أحوال عالم الدنيا[٧٩]، وإنما يدعو الله – عز وجل – بالشهداء يوم القيامة؛ لتأكيد الحجة عليهم، قال ابن عباس: الشهداء، هم الذين يشهدون للرسل بالتبليغ وهم أمة محمد – صلى الله عليه وسلم –، وقال عطاء: الحفظة[٨٠]، قال ابن عادل: لما بيّن الله – عز وجل – بأن يوصل إلى كل أحد حقه عبر عن هذا المعنى بعبارات: أولها: (وقُضِيَ بينهم بالحق)، ثانيها: (وهم لا يُظلمون)، ثالثها: ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحها بإثبات العدل[٨١].

سادساً: الفوائد المستنبطة:

(١) استعارة الله – عز وجل – النور للحق والبرهان في مواقع التنزيل[٨٢].

(٢) إبدال الأرض غير الأرض التي نحن عليها، ويزينها الله – عز وجل – بعدله، وينصب موازين قسطه[٨٣].

(٣) يخلق الله تعالى نوراً من غير شمس، ولا قمر، ولا نجوم، يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به[٨٤].

(٤) في الآية دلالة على وصف أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – بالعدالة؛ وذلك بكونهم شهداء للأنبياء[٨٥].

(٥) يحضر رب العزة في محفل يوم القيامة جميع ما يحتاج إليه في فصل الحكومات، وقطع الخصومات[٨٦].

(٦) عدم ظلم أحد بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، على ما جرى به من الوعد[٨٧].

(٧) افتتاح الآية بإثبات العدل، وختمها بنفي الظلم[٨٨].

المطلب الثالث:

بوادر هلاك فرعون وقومه لموسى عليه السلام وقت الإشراق:

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [٨٩]

أولاً: تحليل الكلمات:

قوله تعالى: ﴿ أَسْرِ ﴾ ، (سير): أصلٌ يدل على مضي وجريان، يقال: سار يسير سيراً ومسيراً ومسياراً، والسير يكون بالليل والنهار، أما السُّرى فلا يكون إلا ليلاً[٩٠] قوله تعالى: ﴿ مُّتَّبَعُونَ ﴾ ، (تبع): ما تبع أثر شيء فهو يتبعه، تقول: تبعت القوم تَبَعاً وتباعة، إذا مشيت خلفهم، قيل: أتبع فلان فلاناً إذا تَبِعه يريد به شراً، والتابع يكون واحداً وجمعاً، قال بعض العلماء: تَبِعْت الرجل إذا مشيت معه، وأتبعته إذا مشيت خلفه لتلحقه[٩١]. قوله تعالى: ﴿ حَٰشِرِينَ ﴾ ، (الحشر): هو جمع الناس، يقال: حشَرَهم يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حشراً، إذا جمعهم، والمحشر: مجتمِعَهم في الموضع الذي يحشرون فيه، ومنه يوم المحَشَر، والعرب تقول: حشرت السنة مال بني فلان، كأنها جمعته وأتت عليه[٩٢]. قوله تعالى: ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ ، (الشرذمة): القليل من الناس، أو القطعة من الشيء، والجمع: شراذم، والشرذمة في كلام العرب: القليل، يقال: ثياب شراذم، أي: أخلاق متقطعة، وثوب شراذم، أي قطع[٩٣].قوله تعالى: ﴿ لَغَآئِظُونَ ﴾ ، (الغيظ): يدل على كربٌ يلحق الإنسان من غيره، وهو كامن للعاجز، وهو أشد أنواع الغضب، لذلك سُميَ الغضب غيضاً، تقول: غظت فلان أغيظه غيظاً، أي: أغضبته، ويقال: غاظ يغيظ غيظاً فهو غائظ[٩٤].

قوله تعالى: ﴿ حَٰذِرُونَ ﴾ ، (الحذر): أصلٌ يدلُ على التحرّز والتيقّظ، تقول: حَذِرت الشيء أحذره حذراً، ويقال: رجلٌ حَذِر، أي: متيقظ متحرّز، وحذار، بمعنى احذر، والمحذورة: الفزع، تقول: رجلٌ حذريان، أي: شديد الفزع، وقيل: حذرون، بمعنى: خائفون[٩٥].قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ ، (الورث): الإبقاء للشيء، تقول: ورث فلاناً، أي: أدخله في ماله على ورثته، يقال: ورث فلان أباه، فهو يرثه وراثة وميراثاً، وتقول: ورّث فلاناً مالاً، أرِثه ورِثاً ووَثاً، إذا مات مُورِّثه فصار يرثه، والوراثة: انتقال قنية إليك من غير عقدٍ، ولا ما يجري مجراه[٩٦].

ثانياً: المناسبة:

لمّا قص سبحانه من حال الدعاء ما كفى في التسلية من قصد هذين النبيين بالأذى والتهكم بمن دعوا إليه، وجعلهما الأعليين، ولم يضرهما ضعفهما وقلتهما، ولا نفع عدوهما قوته وكثرته، ولم تنفع تلك المناظرة التي أقامها فرعون بين موسى والسحرة، والتي انتهت بتلك الهزيمة المنكرة للسحرة، ولم تكن تلك الآية التي شاهدها فرعون من تلك المناظرة، ما يقيم عليه دليلاً على أن موسى مرسل من رب العالمين، شرع يسلي بما أوقعه حال السير، فقال طاوياً ما بقى منه؛ لأن هذا ذكّر به، ولم يكتم اتباعكم عن موسى – عليه السلام – لعدم تأثره به لمّا تحقق عنده من الحفظ لِمَا تقدّم به الوعد الشريف بذلك التأكيد، وهنا يسدل السياق الستار على هذه الروعة الغامرة، لا يزيد شيئا، ليبقى للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق، وهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب، فأما بعد ذلك فالله يتولى عباده المؤمنين[٩٧].

ثالثاً: الأوجه البلاغية:

(١) الإشارة: في قوله تعالى: (إن هؤلاء) فقد أشار بأداة القرب؛ تحقيراً لهم، إلى أنهم في القبضة وإن بعدوا، لِمَا لهم من العجز[٩٨].

(٢) الاحتقار: في قوله تعالى: (لشرذمة قليلون) الشرذمة: هي الطائفة أو الجماعة القليلة، وكان يمكن الاكتفاء بها تعبيراً عن القلة، ولكنه وصفها بالقلة القليلة، زيادة في احتقارهم واستصغار شأنهم[٩٩].

(٣) الكناية: في قوله تعالى: (إنا لجميع حاذرون) إذ سوى موسى – عليه السلام – نفسه معهم؛ وذلك كناية عن وجوب الاقتداء به في سياسة المَمْلَكة[١٠٠].

(٤) الاعتراض: في قوله تعالى: (وأورثناها بني إسرائيل) في هذه الآية بيّن تحليل الإرث بعد زمان، وكأن العاقبة لمّا كانت لهم، صاروا كأنهم ملكوها حيث خروج أربابها منها[١٠١].

رابعاً: القراءات القرآنية:

(١) قوله تعالى: (بني إسرائيل) قرأ أبو جعفر: بتسهيل الهمزة الثانية في الحالين مع المد والقصر، واختلف في مدّها مع الأزرق، وقرأ حمزة: بتحقيق الهمزة الأولى من غير سكت على بني، وبالسكت، وبالنقل، وبالإشمام[١٠٢].

(٢) قوله تعالى: (أن أسر) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو جعفر، وابن محيصن بكسر النون والراء في الوصل، وهو من سريت، وإذا وقفوا على (أن) ثم ابتدأوا، قرأوا بهمز مكسورة، (أن / إسر)، وقرأ الباقون بهمزة مقطوعة مفتوحة في الحالتين[١٠٣].

(٣) قوله تعالى: (لحاذرون) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن ذكوان عن ابن عامر (حاذرون) بالألف والذال المعجمة فحجتهم أنه أتى به على أصل ما أوجبه القياس في اسم الفاعل كقولك: علم فهو عالم ، وقرأ الباقون (حذرون) بغير ألف، جمع حذِر: وهو المتيقظ أو الخائف، وحجتهم: أنه قد جاء اسم الفاعل على فعل فالحاذر: مستعد، والحذِر: المتيقظ[١٠٤].

خامساً: الإعراب:

قوله تعالى: (كذلك) تحمل إعراب هذه الآية ثلاثة أوجه:

أولاً: النصب على أخرجناهم، مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه.

ثانياً: الجر على أنه وصف لمقام، أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم.

ثالثاً: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك[١٠٥].وقد كان لأبي حيان نظر في تلك الأوجه، فقال: الوجه الأول لا يسوغ؛ لا يؤول إلى تشبيه الشيء بنفسه، وكذلك الوجه الثاني؛ لأن المقام الذي كان لهم هو مقام كريم، فلا يشبه الشيء بنفسه[١٠٦].وقد ردّ السمين الحلبي على توجيهات أبي حيان، فقال: وليس في ذلك تشبيه الشيء بنفسه؛ لأن المراد في الأول: أخرجناهم إخراجاً مثل الإخراج المعروف المشهور، وكذلك الثاني[١٠٧].

سادساً: المعنى العام:

لمّا طال مقام موسى – عليه السلام – ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله العظيمة الباهرة على فرعون وملئه، وأراهم خوارق العادات، فأبهر الأبصار، وحيّر العقول، وهم مع ذلك لا يرعون، ولا ينتهون، وقد تمادى قبط مصر على كفرهم، وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، فأمر الله تعالى نبيه موسى– عليه السلام – أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُأمر، وقد علّلَ الأمر بالإسراء: وهو اتباع فرعون وجنوده آثارهم، وقد خرج بعد أن استعاروا من القوم حُليّاً كثيراً، وقد كان خروجهم وقت طلوع القمر طالبين بلاد الشام، كما قاله أكثر المفسرين، فلمّا أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، ولمّا عَلِمَ فرعون بذهابهم، حنق عليهم كل الحنق، واشتدّ غضبه عليهم، فأرسل سريعاً في بلاده، على أن يُحشر الجند ويجمعه، وقال فرعون للحشر: إن هؤلاء بني إسرائيل شرذمة قليلون، وقد وصل إلينا منهم كل ما يغيظنا، وإني أريد أن أستأصلهم، وأبيدهم، وقد ذكر كثير من المفسرين أن فرعون خرج في جحفل عظيم، وجمع كبير، وإن دلّ على شيء إنما يدل على مملكة الديار المصرية في زمانه، وقد ذكر في عددهم أقوال عدة، فمنهم من قال: أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خير دهم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، وفي ذلك نظر، والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم، والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا

بأجمعهم، وقد وصلوا وقت الشروق، وقد انتهى بموسى ومن معه السير إلى البحر، وهو بحر القلزوم، فصار البحر أمامهم، وفرعون من خلفهم، فأمر الله نبيه موسى أن يضرب البحر بعصاه وأن يقسمه، إلى قسمين كالجبلين، فبعث الله الريح إلى قعر البحر، فلفحته فصار يبساً كوجه الأرض، ليدخل بني إسرائيل البحر فيعبروا البحر، ثم يلحقهم فرعون وجنده، فيطبق عليهم البحر، فلم يبق منهم رجلاً إلا هلكته، وأن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنان، والعيون، والكنوز، والمقام الكريم، أورثه الله لبني إسرائيل[١٠٨].

سابعاً: الفوائد المستنبطة:

(١) جواز الخروج لصاحب الدعوة من المدينة، عندما يعلم أنه قد قُضي الأمر في استأصالهم[١٠٩].

(٢) لا ينصر نبي ولا ولي إلا بعد أن يهاجر من وطنه، سنة الله في خلقه، والنصرة مقرونة مع الذلة[١١٠].

(٣) يجب على الأمة أن تكون من عاداتها التيقظ للحوادث، والحذر مما يكون عليها من سيّئ العواقب[١١١].

(٤) استعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج عليهم خارج سارعوا إلى حسم فساده[١١٢].

(٥) خلق الله تعالى في قلوب بني إسرائيل داعية للخروج، فاستلزمت الداعية للفعل[١١٣].

(٦) في الآية أصل من أصول السياسة، وهو سد ذرائع الفساد ولو كان احتمال إفضائها إلى الفساد ضعيفاً، فالذرائع الملغاة في التشريع ، غير ملغاة في سياسة العموم[١١٤].

(٧) تتجلى قدرة الله وحكمته في إيراث الأرض للمؤمنين[١١٥].

المطلب الرابع

تسبيح الجماد للباري – عز وجل- وقت الإشراق

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾[١١٦].

أولاً: تحليل الكلمات:

قوله تعالى: ﴿ اصْبِرْ ﴾ ، (الصبر): حبس النفس عن الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة يَصبِرُ صَبْراً، تقول: صبرت نفسي أصبُرُ صَبْرَاً، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر، أي: حبستها، وأصبر الرجل: إذا وقع في أمرٍ صبور وهي الداهية[١١٧].قوله تعالى: ﴿ أَوَّابٌ ﴾ يقال: آب يؤوب أوباً، إذا رجع، والمآب: المرجع، ورجلٌ أواب: أي راجعٌ عن ذنبه، قال أهل اللغة: الأوّاب:الرجَّاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة[١١٨]، قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾[١١٩].قوله تعالى: ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ التسخير: التذليل، يقال: سخّر الله – عز وجل – الشيء، إذا ذلّلهُ لأمرِه وإرادته، يقال: سَخَرْتُه، بمعنى: قهرته وذلّلتُهُ، قيل: سَخَّرت السفينة: أطاعت وجرت وطاب لها السير، ويقال: سخّر الله لفلان كذا وكذا، أي: سهّله له[١٢٠].

ثانياً: المناسبة:

لمّا كانت مقالتهم تقتضي الاستخفاف، وركوبهم الباطل عناداً، وتجاوز في طغيانه رؤوس الربى، وكان سؤالهم في تعجيل العذاب استهزاء مع ما قدموا من الإكذاب، والكلام البعيد عن الصواب، ربما اقتضى أن يسأل في تعجيل ما طلبوا، وربما أوقع في ظن أن إعراضهم والابتلاء بهم ربما كان لشيء في البلاء أو المبلغ، بين تعالى أن عادته الابتلاء للصالحين رفعة لدرجاتهم، فقال تعالى مسلياً ومعزياً ومؤسياً لهذا النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – بمن تقدمه من إخوانه الأنبياء، والمرسلين، مذكراً له بما قاسوا من الشدائد وما لاقوا من المحن، وحاثاً على العمل بأعمالهم آمراً بالتأني والتؤدة والحلم،

ومحذراً من العجلة والتبرم والضجر، وبدأ بأهل الشرف؛ لأن السياق لشرف القرآن الذي يلزم منه شرف صاحبه تعريفاً بأنه لا يلزم من الشرف الراحة في الدنيا، وذكر داود ومن بعده من الأنبياء، فيه تسلية للنبي – عليه الصلاة ولسلام – ووعد له بالنصر وتفريج الكروب، فإن داود وسليمان وأيوب أصابته الشدائد، ثم فرَّجها الله عنهم، وأعقبها بالخير العظيم، فأمر سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – بذكرهم؛ ليعلمه أن يفرّج عنه ما يلقي من إذاية قومه، ثم يمنحه النصر والظهور عليهم[١٢١].

ثالثاً: القراءات القرآنية:

قوله تعالى: (الإشراق) قرأ الأزرق، وورش، بترقيق الراء، بخلاف عنهما من أجل كسر حرف الاستعلاء[١٢٢].

رابعاً: الأوجه البلاغية:

(١) الإشارة: في قوله تعالى: (واذكر عبدنا داود) ابتدأ بذكر داود؛ لأن الله أعطاه مُلكاً، وسلطاناً، لم يكن لآبائه، ففي ذكره إشارة إلى أن شأن محمد – صلى الله عليه وسلم – سيصير إلى العزة والسلطان[١٢٣].

(٢) الاعتراض: في قوله تعالى: (أوّاب) جاءت هذه الآية تعليل الأمر بذكره على أن الأمر لقصد الاقتداء به، فالجملة معترضة، بين جملة (واذكر) وجملة بيانها وهي (أنا سخرنا الجبال معه)[١٢٤].

خامساً: المعنى العام:

لمّا ذكر الله – عز وجل – من أخبار الكفار، وسفاهتهم، وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – بالصبر على أذاهم، فقد سلاّه بما يقص عليه من خبر الأنبياء – عليهم السلام – الذي كانت بدايتهم أيام محن، ثم جاءتهم أيام المنن، بدأ بنبيه داود – عليه السلام – فقد وصفه الباري – عز وجل – بأنه كان ذا أيدٍ، والأيد: يعني القوة في العلم والعمل، وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: الأيد، يعني: القوة، وقال مجاهد: القوة في الطاعة[١٢٥]، وقد كان داود – عليه السلام – يقوم الليل ويوم نصف الدهر، كل ما يكره، وفي الصحيحين، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال:" أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً، ويفطر يوماً "[١٢٦]، وقد كان داود – عليه السلام رجّاع إلى الله عز وجل بالتوبة في، وقد سخّر الله لداود الجبال يُسبْحنَ معه، وقال بعض أهل العلم أنه قال:(له) ولم يقل: (معه)؛ لأن تسخير الجبال له – عليه السلام – لم يكن بطريق التفويض الكلي، كتسخير الرياح وغيرها لابنه، بل بطريقة التبعية لاقتداء به في عبادة الله تعالى[١٢٧]، وذكر بعض العلماء، أن الباري – عز وجل – قد جاء بلفظ (يسبحن) ولم يقل: (مسبحات)؛ وذلك لدلالة حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحاضر يسمعها تُسبّح[١٢٨].

وقد ذكر أهل التفسير في تسبيح الجبال وجوهاً: أولاً: أن الله تعالى خلق في جسم الجبل حياةً، وعقلاً، وقدرة فصار الجبل مسبِّحاً لله، ثانياً: أنه يجوز أن يقال: أن دواد – عليه السلام – قد أُوتيَ من شدة الصوت وحسنه، ما كان له في الجبال دويّ حسن، فيكون دوي الجبال إليه تسبيحاً، ثالثاً: أن الله تعالى، سخّر الجبال حتى إنها كانت تسير إلى حيث يُريُده داود، وجعل ذلك السير تسبيحاً؛ لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته[١٢٩].

وخصّ الله سبحانه وتعالى تسبيح الجبال بهذا الوقتين، وهما العشي والإشراق بالذكر، لمزيد شرفهما، وسمو درجة العبادة فيها، وقال ابن عباس: ما كنت أمر بهذه الآية، فما أدري ما هي؟ حتى حدثتني أم هاني بنت ابي طالب، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصل عليها فدعا بوضوء في جَفْنةٍ، فكأني أنظر إلى أثر العجين فيها، فتوضأ، ثم قام فصلى الضحى، فقال:" يا أم هاني هذه صلاة الإشراق"[١٣٠]. وقال ابن العربي: أما صلاة الضحى في هذه الآية نافلة مستحبة، وهي في الغداة، ولا ينبغي

أن تُصلّى حتى تبيضَّ الشمس طالعة، ويرتفع كدرها، وتُشرِقَ بنورها، ومن الناس من يبادر قبل ذلك استعجالاً؛ لأجل شغله، فيخسر عمله؛ لأنه يصليها في الوقت المنهي عنها، ويأتي بعمل هو عليه لا له[١٣١].

سادساً: الفوائد المستنبطة

(١) أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم – على جلالة قدره، بأن يقتدي في الصبر على الطاعة بداود – عليه السلام – وذلك تشريف عظيم، وإكرام لداود[١٣٢].

(٢) مدح الباري – عز وجل – داود – عليه السلام – في أنه كان راجعاً في أموره كلها إلى طاعة ربه[١٣٣].

(٣) الاعتبار بحال الأنبياء؛ ليعلمه أن كل نبي كان مشغولاً، حبّهم خاص، وحزنٍ خاص، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك من الهموم والأحزان[١٣٤].

(٤) أن الدرجات العليا عند الله تعالى، لا يمكن تحصليها إلا بتحمل المشاق، والمتاعب في الدنيا[١٣٥].

(٥) في الآية الكرية تسلية للنبي – عليه الصلاة والسلام – بأن لا يضيق صدرك، فإنه مهما خالفوك فيه، فوعد الله بالنصر لك، وتفريج الكرب[١٣٦].

الخاتمة ونتائج البحث

بعد تلك الرحلة القرآنية في رحاب آيات الإشراق، أرى من الضروري أن أوجز ما بُسِط في أثناء هذا البحث، على أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي كما يأتي:

١- يجب على الأمة أن تكون من عاداتها التيقظ للحوادث، والحذر مما يكون عليها من سيّئ العواقب.

٢- جعل الله هلاك القوم عبرة لمن يمر بهم؛ لكي يعرف حقيقة أمرهم، وسوء أعمالهم.

٣- أن الدرجات العليا عند الله تعالى، لا يمكن تحصليها إلا بتحمل المشاق، والمتاعب في الدنيا.

٤- استعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج عليهم خارج سارعوا إلى حسم فساده.

٥- يحضر رب العزة في محفل يوم القيامة جميع ما يحتاج اليه في فصل الحكومات، وقطع الخصومات.

٦- عدم ظلم أحد بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، على ما جرى به من الوعد.

ثبت المصادر والمراجع

---

[١] ينظر: مقاييس اللغة: ٢٦٥/٣، وتاج العروس: ٥٠٠/٢٥ مادة (شرق).

[٢] ينظر: لسان العرب: ١٧٥/١٠ مادة (شرق).

[٣] ينظر: تهذيب اللغة: ٢٥١/٨، وتاج العروس: ٥٠٠/٢٥ مادة (شرق).

[٤] ينظر: مقاييس اللغة: ٢٦٥/٣، والصحاح: ١٥٠١/٤ مادة (شرق).

[٥] ينظر: تهذيب اللغة: ٢٥١/٨، ولسان العرب: ١٧٥/١٠ مادة (شرق).

[٦] الموسوعة الحرة – ويكيبيديا –.

[٧] المعجم الوسيط: ٤٨٠.

[٨] سورة عبس: آية (٣٨).

[٩] ينظر: لسان العرب: ٣٦٩/٤، وتاج العروس: ٤٠/١٢ مادة (سفر).

[١٠] سورة الأنعام: آية (٧٨).

[١١] ينظر: العين: ٣٨٥/٤ مادة (بزغ).

[١٢] ينظر: مقاييس اللغة: ٣٢٨/٣، ولسان العرب: ٥٠٢/٢ مادة (صبح).

[١٣] سورة الأنعام: آية (٩٦).

[١٤] ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٣٠٠/١، ومقاييس اللغة: ٥٩٦/١ مادة (بلج).

[١٥] ينظر: جمهرة اللغة: ٨٣٤/٢، وتهذيب اللغة: ٤٠/٢ مادة (سطع).

[١٦] ينظر: تهذيب اللغة: ٢٧١/١١، والقاموس المحيط: ٢٩٢/١ مادة (شوذ)

[١٧] سورة الحجر: آية (٦٧ – ٧٣).

[١٨] سورة آل عمران: آية (٢١)

[١٩] ينظر: تهذيب اللغة: ٢٤٧/١١، والصحاح: ٥٩٠/٢، مادة (بشر)، وشمس العلوم ٥٣٢/١.

[٢٠] ينظر: الصحاح: ٣٩٢/١، ومقاييس اللغة: ٥٠٩/٤، ولسان العرب: ٥٤٥/٢ مادة (فضح).

[٢١] ينظر: لسان العرب: ٢٢٦/١٤، وتاج العروس: ٥٤٤/٣٧ مادة (خزي).

[٢٢] ينظر: لسان العرب: ٣٤٣/١٥، والقاموس المحيط: ١٣٤١/١ مادة (نهى).

[٢٣] ينظر: جمهرة اللغة: ٩٥٤/٢، والصحاح: ٢٢٤٢/٦ مادة (عمه).

[٢٤] ينظر: مقاييس اللغة: ١٣٣/٤ ، والقاموس المحيط: ١٢٥٠/١ مادة (عمه).

[٢٥] ينظر: نظم الدرر للبقاعي: ٧٤/١١–٧٨، والجواهر الحسان: ٤٥/٣، وأضواء البيان: ٢٨٦/٢.

[٢٦] الاستفهام: هو استعلام ما في ضمير المخاطب. التعريفات: ١٨.

[٢٧] الاستفهام الإنكاري: هو يدل على أن الأمر المستفهم عنه أمر مُنكر، ينكره الشرع، أو العقل، أو العرف، وقد يكون الإنكار إما توبيخ على أمر قد مضى، أو أمر قائم، أو إنكاراً للتكذيب. ينظر: خزانة الأدب: ٣٢٥/١، والبلاغة العربية: ٣٤٢/٢.

[٢٨]

[٢٩] الاعتراض: هو أن يأتي في أثناء الكلام، أو بين كلاميين متصلين، معنىً بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب، لكنه سوى رفع الإبهام. التعريفات: ٣٠.

[٣٠] ينظر: الجامع للأحكام القرآن: ٤٠/١٠، واللباب في علوم الكتاب: ٤٨٠/١١.

[٣١] الكناية: كلام استتر المراد منه بالاستعمال وإن كان معناه ظاهراً في اللغة، سواء كان المراد به الحقيقة أو المجاز فيكون تردده فيما أريد به، فلا بد فيه من النية أو ما يقوم مقامها من دلالة الحال ليزول التردد ويتعين ما يريد به. ينظر: التعريفات: ١٨٧، والتوقيف على مهمات التعاريف: ٢٨٤.

[٣٢] ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦٦/١٤–٦٨.

[٣٣] الإشارة: التلويح بشيء يفهم منه النطق، فهي ترادف النطق في فهم المعنى. التوقيف على مهمات التعاريف: ٥٢.

[٣٤] ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٥٨٥/٢، وفتح القدير للشوكاني: ١٦٥/٣.

[٣٥] ينظر: الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها: ٤١٤، والنشر في القراءات العشر: ٣٨٩/١، وإتحاف الفضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: ٣٤٧، ومعجم القراءات القرآنية للخطيب: ٥٧٠/٤.

[٣٦] ينظر: معاني القراءات للأزهري: ٧٣/٢، وتحبير التيسير في القراءات العشر: ٤٢٩.

[٣٧] ينظر: السبعة في القراءات: ٣٦٨/١، ومعاني القراءات للأزهري: ٧٣/٢، والنشر في القراءات العشر: ١٨١/٢.

[٣٨] ينظر: السبعة في القراءات: ٣٦٨، والعنوان في القراءات السبع: ١١٦، والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة عبد الفتاح القاضي: ١٧٧.

[٣٩] ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٤٩٠/٦، والمحرر الوجيز: ٣٧٠/٣.

[٤٠] ينظر: أعراب القرآن للنحاس: ٢٤٤/٢، ومشكل إعراب القرآن لمكي: ٤١٥/١، والجدول في إعراب القرآن: ٥٦٢/٢.

[٤١] ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٤٤/٢، والجدول في إعراب القرآن: ٢٦٢/١٤.

[٤٢] ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٧٨٦/٢، واللباب في علوم الكتاب: ٥٣٣/١٠، وروح المعاني للآلوسي: ٣١٥/٧.

[٤٣] ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٨٤/٣، وإعراب القرآن للنحاس: ٢٤٤/٢.

[٤٤] ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٤٤/٢ن والمجتبى في مشكل إعراب القرآن: ٥٦٥/٢.

[٤٥] ينظر: تفسير الشعراوي: ٧٧٣٨/١٣، وتفسير الوسيط للطنطاوي: ٦٤/٨، وصفوة التفاسير: ١٠٥/٢.

[٤٦] ينظر: تفسير البغوي: ٣٨٧/٤، والكشاف: ٥٨٦/٢، واللباب في علوم الكتاب: ٤٧٩/١١.

[٤٧] ينظر: الكشاف: ٥٨٦/٢، والتفسير الكبير للرازي: ١٥٥/١٩، وفتح القدير: ١٦٦/٣.

[٤٨] البحر المحيط: ٤٨٩/٦.

[٤٩] المحرر الوجيز: ٣٦٨/٣.

[٥٠] الجامع للأحكام القرآن: ١٠٤/٣.

[٥١] ينظر: تفسير البغوي: ٣٨٧/٤، والجامع للأحكام القرآن: ٣٩/١٠، واللباب في علوم الكتاب: ٤٧٩/١١.

[٥٢] ينظر: الكشاف: ٥٨٦/٢، وتفسير المنار: ١١٣/١٢.

[٥٣] ينظر: الجامع للأحكام القرآن: ٤٢/١٠، وتفسير المنار: ١١٣/١٢، ومحاسن التأويل: ٣٤٠/٦.

[٥٤] ينظر: الكامل في التأريخ: ١٠٩/١، والجواهر الحسان في تفسير القرآن:٤٠٥/٣، ومحاسن التأويل: ٣٤٠/٦.

[٥٥] ينظر: التفسير الوسيط للواحدي: ٨٤/٣، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٥/٣.

[٥٦] ينظر: فتح القدير: ١٦٥/٣، ومحاسن التأويل: ٣٣٩/٦.

[٥٧] ينظر: البحر المحيط: ٤٨٩/٦، والتحرير والتنوير: ٦٦/١٤.

[٥٨] ينظر: الجامع للأحكام القرآن: ٧٦/٩، والبحر المحيط: ١٨٧/٦.

[٥٩] ينظر: الكشاف: ٥٨٦/٢، والمحرر الوجيز: ٣٦٩/٣.

[٦٠] ينظر: بحر العلوم: ٢٦٠/٢، والتفسير الكبير: ١٥٦/١٩.

[٦١] ينظر: التفسير الكبير: ١٥٥/١٩، الجامع للأحكام القرآن: ٣٩/١٠، وتفسير المنار: ١١٣/١٢، ومحاسن التأويل: ٣٤٠/٦.

[٦٢] سورة الزمر: آية (٦٩).

[٦٣] ينظر: العين: ٣٨/٥، وتاج العروس: ٣٠١/١٤ مادة (شرق).

[٦٤] ينظر: تهذيب اللغة: ١٤٨/٣، والصحاح: ١٢٩٩/٣، ومقاييس اللغة: ١١٧/٦ مادة (وضع).

[٦٥] ينظر: العين: ١٨٥/٥، وتهذيب اللغة: ١٦٩/٩ مادة (قضي).

[٦٦] ينظر: تهذيب اللغة: ١٧٠/٩، والصحاح: ٢٤٦٣/٦-٢٤٦٤ مادة (قضي).

[٦٧] ينظر: مقاييس اللغة: ١٠٠/٥، وشمس العلوم: ٥٥٣٢/٨ مادة (قضى).

[٦٨] ينظر: جمهرة اللغة: ٩٣٤/٢، ومقاييس اللغة: ٤٦٨/٣-٤٦٩.

[٦٩] ينظر: الصحاح: ١٩٧٧/٥، ومجمل اللغة: ٦٠١/١، والمخصص: ٤٥٧/١ مادة (ظلم).

[٧٠] ينظر: في ظلال القرآن: ٣٠٦٢/٥، والتفسير القرآن للقرآن: ١١٩٣/١٢.

[٧١] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤٧٥/٦.

[٧٢] ينظر: تفسير المنار: ١٥٠/٩، وفي ظلال القرآن: ٣٠٦٢/٥، والتفسير القرآن للقرآن: ١١٩٣/١٢.

[٧٣] ينظر: الكشاف: ١٤٦/٤، وأنوار التنزيل: ٤٩/٥، والبحر المحيط لأبي حيان: ٢٢٩/٩.

[٧٤] المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر: ١٨٦/١.

[٧٥] ينظر: المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الحقيقة والإنكار: ٨٢، وروح المعاني : ٥٨٥/١٢.

[٧٦] ينظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات: ٢٤٩/٢-٢٤٠، والكشاف: ١٤٥/٤، والمحرر الوجيز: ٥٤٢/٤، والبحر المحيط: ٢٢٢/٩.

[٧٧] ينظر: السبعة في القراءات: ١٤٣، وإتحاف الفضلاء البشر: ٤٨٣.

[٧٨] ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ١٠٠/٥، وإرشاد العقل السليم: ٢٦٣/٧،

[٧٩] ينظر: التفسير الكبير: ٤٧٧/٢٧.

[٨٠] ينظر: أنوار التنزيل: ٤٩/٥، والجامع للأحكام القرآن: ٢٨٣/١٥.

[٨١] اللباب في علوم الكتاب: ٥٥٠/١٦.

[٨٢] ينظر: الكشاف: ١٤٥/٤، والبحر المحيط: ٢٢٣/٩.

[٨٣] ينظر: النكت والعيون: ١٣٦/٥، ومدارك التنزيل: ١٩٣/٣.

[٨٤] ينظر: التفسير الكبير: ٤٧٧/٢٧.

[٨٥] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٦٢/٢٠، وتفسير البغوي: ١٣٢/٧.

[٨٦] ينظر: التفسير الكبير: ٤٧٨/٢٧.

[٨٧] ينظر: بحر العلوم: ١٩٤/٣، والجامع للأحكام القرآن: ٢٨٣/١٥.

[٨٨] ينظر: أحكام القرآن للجصاص- العلمية: ١٠٧/١، واللباب في علوم الكتاب: ٥٥٠/١٦.

[٨٩] سورة الشعراء: آية (٥٢-٦٠).

[٩٠] ينظر: تهذيب اللغة: ٣٤/٣، والصحاح: ٦٩١/٢، ومقاييس اللغة: ١٢١/٣، مادة (سير).

[٩١] ينظر: جمهرة اللغة: ٢٥٤/١، والصحاح: ١١٩٠/٣، والقاموس المحيط: ٧٠٦/١ مادة (تبع).

[٩٢] ينظر: مجمل اللغة: ٢٣٦/١، ولسان العرب: ١٩٠/٤،

[٩٣] ينظر: العين: ٣٠٢/٦، وتهذيب اللغة: ٣٠٩/١١، ولسان العرب: ٣٢٢/١٢ مادة (شرذم).

[٩٤] ينظر: تهذيب اللغة: ١٥٧/٨، والصحاح: ١١٧٦/٣، ومقاييس اللغة: ٤٠٥/٤ مادة (غيظ).

[٩٥] ينظر: الصحاح: ٦٢٦/٢، ومجمل اللغة: ٢٢٤/١، وأساس البلاغة: ١٧٦/١ مادة (حذر).

[٩٦] ينظر: تهذيب اللغة: ٨٥/١٥، والقاموس المحيط: ١٧٧ مادة (ورث)، والتوقيف على مهمات التعاريف: ٣٣٦.

[٩٧] ينظر: نظم الدرر: ٣٨/١٤، وفي ظلال القرآن: ٢٥٩٧/٥، والتفسير القرآني للقرآن: ٩٠/١٠.

[٩٨] ينظر: نظم الدرر: ٣٨/١٤، والتحرير والتنوير: ١٣٠/١٩.

[٩٩] ينظر: الجدول في إعراب القرآن: ٧٨/١٩.

[١٠٠] ينظر: التحرير والتنوير: ١٣٠/١٩.

[١٠١] ينظر: المصدر نفسه.

[١٠٢] ينظر: الحجة للقراء السبعة: ٣٧٠/٥، والنشر: ٢٣٣/١، وإتحاف الفضلاء: ٤٢٤.

[١٠٣] ينظر: السبعة في القراءات: ٤٧١، والمبسوط في القراءات العشر: ٣٢٩، والوجيز في شرح قراءات القرأة الثمانية: ٢٧٣.

[١٠٤] ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٢٦٧، ومعاني القراءات للأزهري: ٢٢٥/٢، والنشر في القراءات العشر: ٣٣٥/٢.

[١٠٥] ينظر: الكشاف: ٣١٥/٣، واللباب في علوم الكتاب: ٣٣/١٥.

[١٠٦] البحر المحيط لأبي حيان: ١٥٩/٨.

[١٠٧] الدر المصون للحلبي: ٥٢٤/٨.

[١٠٨] ينظر: التفسير الكبير: ٥٠٥/٢٤، والجامع للأحكام القرآن: ١٠١/١٣، وتفسير ابن كثير: ١٣٠/٦، وإرشاد العقل السليم: ٢٤٤/٦، وفتح القدير: ١٢٠/٤، والبحر المديد: ١٣٧/٤.

[١٠٩] ينظر: محاسن التأويل: ٤٥٨/٧.

[١١٠] ينظر: البحر المديد: ١٣١/١٩.

[١١١] ينظر: التحرير والتنوير: ١٣١/١٩.

[١١٢] ينظر: مدارك التنزيل: ٥٦٥/٢.

[١١٣] ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٣٢/١٥.

[١١٤] ينظر: التحرير والتنوير: ١٣١/١٩.

[١١٥] ينظر: الجامع للأحكام القرآن: ١٠٥/١٣.

[116] سورة ص: آية (١٧– ١٨).

[117] ينظر: تهذيب اللغة: ١٢٠/١٢، والصحاح: ٧٠٦/٢، ومقاييس اللغة: ٣٢٩/٣ مادة (صبر).

[118] ينظر: جمهرة اللغة: ١٠٢٩/٢، ولسان العرب: ٢١٩/١، وتاج العروس: ٣٥/٢ مادة (أوب).

[119] سورة ق: آية (٣٢).

[120] ينظر: جمهرة اللغة: ٥٨٤/١، ومقاييس اللغة: ١٤٤/٣، ولسان العرب: ٣٥٣/٤ مادة (سخّر).

[121] ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٠٤/٢، ونظم الدرر: ٣٤٩/١٦.

[122] ينظر: جامع البيان في القراءات السبع: ٧٨٤/٢، والنشر: ٩٣/٢، والبدور الزاهرة: ٢٧٢.

[123] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٣.

[124] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢٦/٢٣.

[125] ينظر: تفسير ابن كثير: ٤٩/٧، والجواهر الحسان: ٥٩/٥، وفتح القدير: ٤٨٧/٤.

[126] ينظر: صحيح البخاري: باب من نام عند السَحر: ٥٠/٢ برقم (١١٣١)، وصحيح مسلم: باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به: ٨١٦/٢ برقم (١١٥٩).

[127] ينظر: تفسير البغوي: ٥٧/٤، والبحر المديد: ١٣/٥، وروح المعاني: ١٦٦/١٢.

[128] ينظر: الكشاف: ٧٨/٤، والبحر المحيط: ١٤٥/٩

[129] ينظر: الجامع الكبير: ٣٧٤/٢٦، والجامع للأحكام القرآن: ١٥٩/١٥، واللباب في علوم الكتاب: ٣٩١/١٦.

[130] ينظر: المعجم الكبير للطبراني:٤٠٦/٢٤ برقم(٩٨٦)، ومجمع الزوائد للهيثمي: ٢٣٨/٢ برقم(٣٤٣٠).

[131] الجامع للأحكام القرآن لابن العربي: ٤٠/٤.

[132] ينظر: التفسير الكبير: ٣٧٤/٢٦.

[133] ينظر: المصدر نفسه.

[134] ينظر: الجامع للأحكام القرآن: ١٥٨/١٥.

[135] ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٣٨٩/١٦.

[136] ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٠٤/٢.